

البحث الأثري بالجزائر اثناء الاحتلال الفرنسي وبعد الاستقلال

إشكاليات وفاق البحث

La recherche archéologique en Algérie pendant l'occupation française et après l'indépendance

د/ بن مسعود ناصر¹

المعهد الأثار ، جامعة الجزائر 2 ، Nacer.benmessaoud@univ-alger2.dz

تاريخ النشر: 2023/12/30

تاريخ القبول: 2023/12/07

تاريخ الاستلام: 2023/10/11

الملخص:

يقال ان مكانة الامم انما تقاس بماضيها، وما مدى مساهمتها في الحضارة الإنسانية، لذلك تم الاهتمام بميدان البحث الأثري قصد معرفة هذا الماضي حتى يتسنى تصحيح نقائص حاضرها والتخطيط لمستقبلها، فمن جهة يكشف عن معارف جديدة يمكن استغلالها في المجال السياسي والثقافي والتربوي ومن جهة أخرى تبرز ريادتها في فنون او ميدان من الميادين البناء الحضاري مثل فنون البناء والصناعة. ومن ثم يتكون لها رصيد تاريخي يتباهى به أهلها، الى جانب اكتشاف تقنيات وأنماط ومناهج تطبيقية قديمة يتم تطويرها ودمجها ضمن التقنيات الجديدة باستخدام التكنولوجيات الحديثة، وبذلك تنتبأ هذه الشعوب مكانة الريادة وتفرض سيادتها في مجال من المجالات. ولم تتخلف الجزائر في هذا المجال، فقد عرف البحث الأثري نشاط معتبر يمكن ان نلخصه في حقبتين: فأما الحقبة الاولى فتعرف بالحقبة الاستعمارية والتي تميزت ببحث أثرى موجه لخدمة الإيديولوجية الاستعمارية. بينما تميزت الحقبة الثانية ببعيد استقلال الجزائر بقلة البحث الأثري وذلك راجع لعدة أسباب سنتطرق اليها في هذه الورقة البحثية. وعليه يهدف هذا البحث لمعرفة كيف كان البحث وأسباب ومناهج التي دفعت بالفرنسيين الشروع في البحث والاكتشافات الأثرية منذ الوهلة الاولى لاحتلالها الجزائر، كما نحاول ابراز نتائج هذه البحوث، بل هنالك بعض الفترات التاريخية لم يكن لها نصيب بالبحث اطلاقا، كما تطرح هذه الورقة افاق مستقبلية للبحث الأثري بالجزائر المستقلة. وفي الأخير سنحاول تحديد الأهداف المرجوة خدمة للهوية الوطنية عبر التراث الأثري للارتقاء وتبوء مكانة اللاتقة بأمتنا ضمن الحضارة الإنسانية جمعاء.

الكلمات المفتاحية: الحفريات، المسح الأثري، إشكاليات البحث، التراث الأثري، الأثار والهوية.

: Abstract

S'il est un domaine où les connaissances ont progressé ces dernières décennies, c'est bien celui de la recherche archéologique dont l'attention est portée en particulier sur l'architecture antique, sur les techniques de constructions, et la typologie des structures composant les monuments, les industries les arts décoratives et autres. Ces études ont non seulement accru la documentation, mais plus encore elles ont élargi le champ d'investigation sur l'originalité, l'identité, modes et traditions de la vie des sociétés antiques, aussi bien pendant la période coloniale qu'après l'indépendance. Comme tout autre nation civilisée, L'Algérie modernes s'intéresse à son histoire ancienne, à cette effet plusieurs programmes de recherches archéologique ont été établie dont plusieurs projets de fouilles. D'autre part on est amené à s'interroger non seulement sur les résultats de ces recherches qui tardent à venir, mais aussi sur la qualité des données de ces résultats, aussi bien de l'impact sur l'écriture de notre histoire.

Keywords: Recherche archéologique, Fouilles, prospection, archéologie et identité.

مقدمة:

فمن جهة يكشف البحث الاثري عن معارف جديدة لم تكن معروفة من قبل، ومن جهة أخرى يبرز ريادة البلد في فن من فنون او ميدان من الميادين البناء الحضاري كما يبرز من خلاله الدور والمساهمة المبذول من طرف افراد المجتمع، ومن ثم يتكون رصيد تاريخي خاص يعكس عادات وتقاليد خاصة والدالة على هوية شعب ما، فالأمة انما حاضرها ما هو الا تطور ماضيها¹، لذا يجب إنعاش هذا التراث لأجل احياء الذاكرة الجماعية للامة، وتذكير المجتمع بمسؤوليته التاريخية إزاء هذا الموروث المتشعب بالقيم ولرفع معنويات الامة ، ومن جهة أخرى نتمكن من اكتشاف تقنيات وأنماط ومناهج تطبيقية قديمة يتم تطويرها ودمجها حاضرا بإدخال التقنيات الجديدة باستخدام التكنولوجيات الحديثة وبذلك تتبوأ تلك الدولة مكانة الريادة وتفرض سيادتها في مجال من المجالات الحياة ولو كان ذلك بصفة معنوية.

وعليه فان هذه الورقة البحثية تطرح إشكاليات البحث نراها ذات أهمية يمكن تلخيصها في عدة نقاط تتمثل في إعادة النظر في برامج البحث الاثري المصادق عليه ضمن مشروع البحث العلمي الوطني المنجز عام 1998. كما تطرح وجهة نظر مواضيع بحثية لم تولى بالاهتمام من قبل، بل هنالك بعض الفترات التاريخية لم يكن لها نصيب بالبحث اطلاقا، ومن جانب اخر نلفت انتباه الباحثين في ميدان الآثار الى توخي الحذر في اسنادهم واخذ كل ما كتب سابقا في الفترة الاستعمارية على انه صحيح دون التأكد من ذلك، حيث أحصينا عدد كبير من المغالطات حول وظيفة وتسميات للمباني المعمارية، والأكثر دهشة ان هذه الأخطاء مازال البعض يستخدمها على ضنا منه على انها تأويل صحيح. كما تطرح هذه الورقة افاق مستقبلية للبحث الاثري بالجزائر المستقلة خاصة وان الجزائر تزخر حاضرا بأهم عنصر للارتقاء بالبحث الاثري ألا وهو العنصر البشري المؤهل وذوي خبرة مقبولة ليس فقط على المستوى الوطني بل حتى على المستوى العالمي.

ولم تتخلف الجزائر في هذا المجال، فقد عرف البحث الاثري بالجزائر نشاط معتبر يمكن ان نلخصه في حقتين: فأما الحقبة الاولى فتعرف بالحقبة الاستعمارية والتي تميزت ببحث أثرى موجه لخدمة الإيديولوجية الاستعمارية²، بينما تميزت الحقبة الثانية أي بعد الاستقلال بقله البحث الاثري³. وذلك راجع لعدة أسباب سنتطرق اليها من خلال هذه الورقة البحثية والتي تدخل ضمن فعاليات هذا الملتقى الموسوم بالبحث الاثري في الجزائر اثناء مرحلة الاستعمارية وبعد الاستقلال. ولما كان للبحث الاثري هذا الشأن، كان الأثر بالغ إن كان في تطور أو تراجع مستوى المعرفي للإنسان ومن ثم إدراكه للأوضاع الجيوسياسية والثقافية والتربوية، فكان قبلة للباحثين حيث ظهرت إثر ذلك علوم تابعة متخصصة في شتى المجالات تهتم بصيانة وترميم الآثار واللقى الاثرية وتحليل ودراسات اكااديمية معمقة لهذا الإرث الثقافي قصد الكشف المعرفي، بل أكثر من ذلك أصبح يستخدم أحدث التقنيات والوسائل التكنولوجية المتطورة من الأشعة النووية والليزر واستخدام طرق الاستكشاف عن بعد عن طريق الصاتل وغيرها من التقنيات التكنولوجية الحديثة.

1 - شنييتي محمد البشير، التراث الحضاري ودور البحث في التنمية، الملتقى الوطني للبحث الاثري، جامعة الجزائر2، 30-31 ماي1998، مجلة الدراسات الاثرية "أثار" 1999، العدد 5، ص16.

2 - منصور خديجة، البحث الاثري في الجزائر خلال الاحتلال، الملتقى الوطني للبحث الاثري، جامعة الجزائر230-31 مايو1998، مجلة الدراسات الاثرية 1999، العدد5، ص29.

3 - شنييتي محمد البشير، علم الآثار تاريخه، مناهجه، مفرداته. دار الهدى، عين مليلة- الجزائر. 2013، ص83.

يقال ان مكانة الأمم انما تقاس او تحدد بماضيها الحضاري، وما مدى مساهمتها في بناء الحضارة الإنسانية، فلقد أولت هذه الأمم للبحث الاثري اهتماما خاصا ، فبدراسة هذه المخلفات و الأطلال الباقية وكذا التراث الثقافي سواء المروية أو المكتوب أو تلك الأطلال الباقية و الشاهدة على ماضيها ، مثل الأدوات المصنعة و المنشآت المبنية التي تروي لنا تاريخ الحضارات الغابرة ، يمكن الكشف عن مساهمات قيمة في بناء السرح الحضاري في مختلف الحقول ، منها السياسية و الفكرية والصناعية و العمرانية والفنية و المعمارية، كما تعكس درجة تطور الحاجة اليومية للإنسان في شتى المجالات خاصة الخدمات التي لها علاقة وطيدة بمتطلبات الحياة المعيشية، ومن ثم كان التفكير و التنظيم و تصور للمخططات وتنفيذ البرامج من خلال مناهج و تقنيات الإنشاء باستغلال المواد المستخرجة من الطبيعة.

2-نظرة تاريخية للبحث الاثري بالجزائر :

يتجلى مما سبق مكانة البحث الاثري في المجتمعات المتطورة، فقد أولت هذه المجتمعات لهذا الميدان أهمية كبيرة ان لم نقل مكانة استراتيجية كونه مجال يعبر عن الهوية الوطنية ويمس الارث الحضاري للامة. إلا أن للجزائر وضع خاص، والمتمثل في المراحل التاريخية التي مرت بها حديثا، حيث عرفت مرحلة استعمارية التي دامت أكثر من قرن وثلاثون سنة(1830-1962) .

لقد اتسمت هذه الفترة باكتشافات كثيرة في المجال الأثري، إلا أن المنهج المتبع في البحث و الاكتشاف كان يتميز بخاصية البحث عن الكنوز و اللقى الثمينة مثل التماثيل و الحلي و غيرها، كما كان القصد منها الكشف عن الآثار التي من خلالها يمكن انساب كل منتوج حضاري للمنطقة إلى الحضارة الرومانية والغرض من ذلك طمس المساهمات المحلية وإظهار الأهالي (الجزائريين) بالمتخلفين والغير المثقفين و كل ما انتج سابقا من عمران و صناعة و فنون يعود للحضارة الرومانية كونها احتلت شمال افريقيا في القديم و التي عملت على تحضر البلاد و من ثم تبرير التواجد الفرنسي بالجزائر بتبني هذه الفكرة مجددا⁴.

ومن جهة أخرى توقفت البحوث الأثرية بالجزائر ما بين عام 1954 و عام 1962 إثر اندلاع ثورة التحرير⁵المظفرة، وقد كان ذلك نتيجة قلة الموارد المالية من جهة وانعدام الامن جراء حرب التحرير. من الصعب جدا عرض تاريخ الاكتشافات الأثرية بالجزائر، كوننا نفتقد لدراسات في هذا المجال وقد نحتاج إلى مؤلفات عديدة لجمع وجرد جل الأعمال المحققة.

فيقدر ما هي كثيرة بقدر ما يستحيل ذكرها في هذه العجالة خاصة ان الجزء الأهم من الوثائق والتقارير انما نقلت الى فرنسا ومن الصعب اقتنائها او مطالعتها الا بشق الانفس، ولذا سوف نقدم نظرة مختصرة لما تحقق من أبحاث واكتشافات قصد التعريف بهذه الإنجازات من حيث الهدف والمنهج والهيئات المشرفة عليها وما نتج عنها. ان هذا الموضوع الخاص بالبحث الاثري قد طرح في اشغال الملتقى الوطني للبحث الاثري المنعقد يومي 30 و 31 مايو 1998 والذي نظمه معهد الآثار تحت رعاية جامعة الجزائر، وقد نشرت فعاليات الملتقى بمجلة الدراسات الاثرية آثار العدد 05 لعام 1999، في محاولة لتقييم الاعمال التي جرت من قبل وتسطير برنامج مستقبلي.

⁴ - شنييتي م.ب. 2013.ص.48.

⁵ - Lassus (L), L'archéologie Algérienne en 1958, Libya, 1958, t.7, p ;225

ومن بين المداخلات نذكر مداخلة الأستاذ محمد البشير شنييتي⁶ الموسومة "التراث الحضاري ودور البحث في التنمية"، وكذلك مداخلة الأستاذة خديجة منصور⁷ والموسومة بـ "البحث الأثري في الجزائر أثناء الاحتلال". كما قدم الأستاذ عبد العزيز بالأحرش⁸ مداخلة بعنوان بداية البحث الأثري في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، نظرة تقييمية: فترة ما قبل التاريخ". وعليه نكتفي بما قدم من طرف الأساتذة الأفاضل بحيث سنحاول القاء نظرة شاملة للبحث الأثري بالجزائر أثناء الاحتلال وكذا بعد الاستقلال باختصار، ومعرفة الأسباب التي دفعت فرنسا الشروع في البحث الأثري منذ ان وطئت أقدامها أرض الجزائر، ثم ما المناهج والطرق التي طبقت أثناء التنقيب والى أي نتيجة أفضت هذه الأعمال؟

1.2- المرحلة البحث الأثري أثناء الاحتلال (1880-1962).

لقد عرف البحث الأثري ببلادنا أثناء الاحتلال فترتين متميزتين، فأما الفترة الأولى وهي المرحلة الممتدة من سنة 1830 الى غاية 1880 والتي تعتبر فترة الاكتشافات الكبرى بداية من الرحالة الجغرافيين والمبشرين للديانة المسيحية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر كما كان لجيش الاحتلال دور كبير في هذه العملية خاصة أثناء عبوره بعدة مناطق بها آثار، مثل اكتشاف مواقع تعود لفترة ما قبل التاريخ، حيث تم أول الاكتشافات في أول الأمر عن طريق الصدفة أثناء توغل الجيش الفرنسي الى اعماق الصحراء قصد قمع الثورات التي قاومت هذا التوغل، كما قامت السلطات المحتلة بشق الطرق الى اعماق الصحراء لتوسيع ويسط نفوذها⁹، علما ان مشروع التوسع الفرنسي كان يهدف الى الوصول الى اعماق افريقية .

وقد اكتشف اثناء هذا التوغل العديد من المواقع الأثرية مثل موقع تحويضين بالاهقار ومواقع أخرى غرب الجزائر والتي أشار إليها ألكسندر بوجو¹⁰ عام 1868. كما تميزت هذه الفترة باكتشاف العديدة من المدن الأثرية العائدة للعهد القديم مثل الموقع الأثري تيمقاد التي اكتشفت المدينة عام 1765 من طرف الرحالة الانجليزي بروس Bruce، حيث سارع المختل بالاستيطان بها ومباشرة اعمال التنقيب عام 1840 حيث ما كان ظاهرا أنذاك إلا بعض الأجزاء من أعمدة وأسوار المدينة وأجزاء من قوس تراجان. وقد زار الموقع رونييه في إطار بعثة علمية لجمع النصوص اللاتينية بالمنطقة وذلك عام 1851. كما اكتشفت مدينة كويكول عام 1839 ما بين 19 و21 مايو عند مرور كتية عسكرية فرنسية بالمنطقة متجهة نحو سطيف بقيادة دوق لأورليان والذي قرر تفكيك قوس نصر كراكلا قصد نقله الى باريس لتزين إحدى ساحاتها العمومية إلا أنه لم يتم نقل المعلم بقرار من المارشال الدوق دالماسي Duc de Dalmatie على إثر معارضة المارشال فالي لهذه العملية. بالإضافة لاكتشاف عدة مواقع¹¹ أخرى مثل ثبيليس (عنونة) وتيبرسكوم نوميداريوم خميسة، وقد كان للجيش الفرنسي آنذاك مساهمة فعالة في التعريف بها والبدء في عملية التنقيب عن الآثار.

⁶ - شنييتي، 1999، ص. 15-24

⁷ - منصور خديجة، 1999، ص. 25-40.

⁸ - بالأحرش عبد العزيز، بداية البحث الأثري في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، (نظرة تقييمية فترة ما قبل التاريخ) الملتقى الوطني للبحث الأثري، جامعة الجزائر 230-31 مايو 1998، مجلة الدراسات الأثرية 1999، العدد 5، ص. 65-84.

⁹ - بالأحرش عبد العزيز، 1999، ص. 75.

¹⁰ - Souville (A), Les grottes à ossements et préhistoriques de l'ouest d'Alger, Libya, Alger, 1953, t.I, p.22.

¹¹ - Gsell (st) et Jolly (Ch. a), Khamissa, Mdaourouch, Announa, A-J. Fontenoing, Alger-Paris, 1922,3 vol, t.I, p.9.

أما الفترة الثانية فتمتد من عام 1880 إلى غاية 1962، وهي المرحلة التي امتازت بكثرة الاكتشافات أيضا إلا أنها كانت احسن تنظيم حيث كانت تشكل البعثات العلمية إلى مختلف مناطق القطر قصد جرد كل أثر والمعلم التاريخي¹²، إضافة إلى ذلك تم برمجة عمليات التنقيب عن الآثار بصفة منتظمة و دائمة تحت رعاية السلطات المركزية للحكومة الجزائرية آنذاك وبإشراف باحثين آخرين¹³، مثل باربروجر A. Berbrugger و كانيا Cagnât و بالو A. Ballu و جولي Jolly و كريستوفل M. Christofle. كما كان للباحثين الجامعين دور كبير في إنجاح هذه الأبحاث عبر نشر النتائج والبحث و التقارير و كتابة كتب حول المعالم التاريخية بالجزائر مثل كاربوسا L. Carbussia، دولامار Ad. Delamare، و المعماري رافوازيه Am. Ravoisier و قزال Stp. Gsell و ديال Ch. Deihl و ماسكوري E. Masqueray و ميرلان A. Merlin و اومو Homo. لـ وغيرهم من الباحثين¹⁴. فلقد اتسمت هذه الفترة ببحث أثري حقيقي يعتمد على حفريات منظمة يمكن أن نقول عنها أنها ذات منهجية علمية بالرغم من كون اغلبية المنفذون الميدانيون يفتقدون لأعضاء مختصين، فقد كان أغلبيتهم هواة، بالإضافة للجمعيات الثقافية التي غالبا ما تكون مؤلفة من مختلف شرائح المجتمع من أطباء ومدرسين وطلبة ومهندسين ومصورين ورسامين، وفي بعض الأحيان يتم الاستجداد بالجنود مثل ما حصل عند اكتشافات لامبيزس نهاية القرن التاسع عشر. وقد كان الهدف من هذه البحوث الجانب العلمي والسياحي وكذا تموين المتاحف الفرنسية بالقطع الأثرية على غرار ما عثر عليه بموقع تيقزيرت (يونيوم) حيث نقلت عناصر معمارية بالكامل من هذا الموقع الى متحف اللوفر بباريس حيث خصص لها قاعة تسمى اثار يونيوم بالجزائر. والجدير بالملاحظة ان هذه الفترة عرفت توقف البحث الاثري لمرتين، الأولى خلال الحرب العالمية الثانية (1939-1945) وذلك راجع لانعدام التموين المادي الذي كان يخصص للبحث الاثري، ثم استأنفت الأبحاث مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية. اما التوقف الثاني الذي عرفه البحث الاثري فكان ما بين 1954 و 1962، أي خلال حرب التحرير الوطنية، حيث توقفت البعثات والاستكشاف وكذا التنقيبات وذلك لانعدام الامن بالنسبة لهذه البعثات بالرغم من التواجد العسكري الفرنسي.

2.2- المرحلة: البحث الاثري بالجزائر بعد الاستقلال:

وتمتد هذه المرحلة ما بين 1962 إلى يومنا هذا، وهي أيضا عرفت فترتين بدورها، فأما الفترة الأولى فتمتد من عام 1962 إلى عام 1978 و التي تميزت بالغياب الكلي للبحث الاثري الميداني كون من كان يشرف على هذا الميدان سابقا هم فرنسيون، و هؤلاء هم اول من غادر الجزائر قبيل و بعد الاستقلال بأسابيع قليلة، فلم يبق أي من مسؤولين او المهتمين و لا الاخصائيين في الآثار، و قد نتج عن ذلك فراغ كبير بمجال الآثار حيث بقيت المتاحف مغلقة و المواقع الأثرية عرضة للتخريب و اللقى التي كانت متواجدة بالحدائق الأثرية عبر عدة مدن عرضة للسرقه والتخريب. ويجب التنويه هنا بالمجهود الذي بذلته مصالح التراث للحكومة الجزائرية المستقلة حيث استقدمت أساتذة المدارس والثانويات لشغل مناصب محافظي المواقع وكذا المتاحف حتى يتم المحافظة على ما تبقى من اللقى الأثرية. وقد بذلت مجهودات كبيرة لتكوين هؤلاء في دورات خاصة في البلدان الشقيقة مثل مصر وسوريا كما احتك البعض من المهتمين بالآثار بالجزائر بالإخوة التونسيين والمغاربة كون هذان البلدان لم ينقطع العمل الاثري بهما غداة استقلالهما

12- Février P.AL, Approches du Maghreb romain, Edi sud, Aix-en-Provence, Paris, 1989, p.31.

13 - شنيطي م. ب. 2013. ص. 48.

14 - شنيطي م. ب. 2013. ص. 71-68.

بل تابعت البعثات الفرنسية اعمالها بشكل عادي¹⁵، وفي نفس الوقت حاولت جامعة الجزائر التي كانت تسمى بالكلية المركزية بالجزائر بعث التكوين في ميدان التاريخ والآثار.

اما الفترة الثانية فتمتد من 1978 الى 1985 وهي الفترة التي حاولت فيها الدولة الجزائرية من إعادة بعث التعاون المنصوص عليه في اتفاقية افيان¹⁶ والخاص بعود فرنسا في تكوين مختصين في ميدان التراث والآثار وضمان استمرارية النشاط في ميدان الثقافي والتراث ومنه الاثري، الا انه لم تأتي هذه المحاولة بأي نتيجة كون الطرف الفرنسي لم يبدي أي اهتمام لهذا الميدان. وقد بقي هذا الوضع على حاله حتى نهاية السبعينيات من القرن الماضي. حيث كلفت جامعة الجزائر بفتح تخصص التاريخ فأصبح الاهتمام أكثر فأكثر بهذا الميدان وتم في هذه الفترة فتح تخصص الآثار وفعلا تم تكوين وتخرج اول دفعة في الآثار نهاية 1978، ثم اغلق التخصص لأسباب غامضة لا علم لنا بها، ثم اعيد فتح هذا التخصص مرة أخرى بقسم التاريخ عام 1982. وبعد ذلك بسنوات قليلة تم إنشاء معهد الآثار بجامعة الجزائر عام 1985، هذا المعهد اخذ على عاتقه مهمة تكوين أساتذة باحثين في مختلف التخصصات الأثرية وصيانة وحفظ اللقى الأثرية حيث كان جل أساتذة المعهد جزائريين، وقد قاموا بالتكوين النظري وكذا الميداني، كما أشرفوا على العديد من الحفريات عبر كامل التراب الوطني، هذا التكوين اتى اكلته بعد عقدين من الزمن حيث نجد خريجي معهد الآثار هم إطارات بوزارة الثقافة ومحافظي المواقع الأثرية والمتاحف وباحثين بالمراكز البحثية في علم الآثار.

فكما نلاحظ حاليا، لا تخلو جامعة بالوطن الا ووجد بها قسم او فرع من فروع تخصص الآثار، إن تقديمنا لهذه النبذة التاريخية التي مر بها البحث وتكوين الاخصائيين في ميدان الآثار بالجزائر، وكذا الوضع السابق والحالي لميدان البحث الأثري، إنما يرجع أساسا لإبراز الأهمية التي منحت له والمكانة الاستراتيجية التي يتميز بها البحث الأثري ببلادنا، لاسيما أن هذا العصر هو عصر الاقتصاد السياحي والقائم أساسا على المعرفة الثقافية والفنية والتاريخية لماضي الشعوب.

3- الهيئات المشرفة على البحث:

لقد تعددت الهيئات المشرفة على البحث الأثري بالجزائر، فلو حاولنا احصائها لوجدناها تعد بالعشرات ان لم يكن أكثر، حيث نجد بكل مدينة عدة هيئات منها جمعيات ثقافية ومؤسسات علمية ولجان محلية حكومية او غير حكومية الى جانب جمعيات اثرية، جل الهيئات هذه انما كان نشاطها بالميدان الأثري، من بحث وتنقيب وجمع اللقى وتصنيف والحفظ.، كما اولت هذه الهيئات اهتماما خاصا لعملية التنقيب والاستكشاف حيث كان في مقدمتهم القادة والجنود، ويمكن تلخيص هذه الهيئات على النحو التالي:

1.3- الجمعيات المحلية:

لقد ظهرت الى الوجود عدة جمعيات محلية غير حكومية تنشط في مجال الآثار مهمتها جمع والمحافظة والتعريف بآثار المنطقة التي يقطنون بها، وقد أسس اغلب هذه الجمعيات ضباط عسكريون سواء مازالوا في الخدمة أو احيلا

15 - شنيطي م. ب. 2013. ص. 38

16 - نفسه

على التقاعد وذلك منذ مطلع القرن التاسع عشر، وترتكز مهام هذه الجمعيات في الغالب في جمع اللقى الأثرية المكتشفة صدفة مثل النصب والنقائش الجغرافية، هذه الأعمال كانت تدرج ضمن تقارير وصفية للمكتشفات ومواقعها.

فمن بين هذه الجمعيات نذكر على سبيل المثال لا الحصر الجمعية الجغرافية والأثرية لمحافظة قسنطينة المؤسسة عام 1852، وكذا الجمعية التاريخية الجزائرية المنشأة سنة 1856، وأكاديمية إبونة المؤسسة عام 1862، وكذلك الجمعية الجغرافية والأثرية لمحافظة وهران¹⁷ والمنشأة عام 1878.

2.3- دور الجيش:

كما كان للجيش الفرنسي تحت إشراف باربروقر دورا بارزا في تفعيل هذه الأعمال حيث تكونت عدة لجان عسكرية تابعة للمحافظات الجزائرية¹⁸، كما دعمت هذه الجمعيات بعناصر مدنية مثل الجغرافيين و المهندسين و الرسامين و أطباء للقيام بمهمة توثيق المعلومات و الإشراف التقني و العلمي للمكتشفات، فكانت مهمة هذه اللجان العسكرية جمع أقصى ما أمكن من المعلومات الجغرافية و التاريخية و اللقى الأثرية و النقائش اللاتينية و كذا دراسة بعض المعالم التاريخية الظاهرة ، ثم الكشف عن الآثار المغمورة¹⁹ مثل لجنة Delamare و لجنة Ravoisier.

3.3- الهيئات العلمية:

ولما كانت لهذه الاكتشافات الأثرية أهمية خاصة أنشئت هيئات مختصة مكونة من أساتذة وباحثين في المجال التاريخ والأثار، من بين هذه الهيئات نذكر مصلحة المعالم التاريخية الجزائرية التي أسست عام 1880و التي أسندت إليها مهمة إدارة وتنظيم البحث الأثري بالجزائر برئاسة مهندسين معماريين²⁰ من بينهم A. Ballu، إلى جانب تكليف المدرسة العليا للآداب التي تحولت فيما بعد الى كلية الآداب والعلوم الإنسانية والمعروفة حاليا بجامعة الجزائر. وقد تأسست هذه الجمعية عام 1880 بالجزائر خاصة بعد أن التحق بطاقتها باحثين وأساتذة مختصين في علم التاريخ والفنون واللغات القديمة من بينهم س. قزال. إضافة إلى لجنة شمال إفريقيا المنصبة بوزارة المعارف بباريس²¹ والمنشأة عام 1880، والتي أسندت لها مهمة جمع ودراسة النقائش والآثار المكتشفة والتعريف بها. كما شاركت المدرسة الفرنسية بروما بإيفاد بعثات علمية للإشراف على عمليات التنقيب الأثري بالجزائر²². أما أكاديمية برلين فقد نصبت فريق مكون من مختصين في جمع وتصنيف النقائش اللاتينية تحت إشراف G. Willmans والذي خلفه بعد ذلك Theodor Mommsen. قصد إعداد الجزء الثامن من سجل النقائش اللاتينية C. I.L,VIII والمخصص لشمال إفريقيا و تم نشره عام 1881.

17 - منصورى خديجة. 1999.ص.39.

Grenier (A), Le génie romain dans la religion, la pensée et l'art, Paris, 1969, p.9

18- Février (P.AL), 1989, p.31.

19- Rey-Goldzieger (A), Le royaume arabe, SNED, Alger,1977, p.776.

20- منصورى خديجة. 1999.ص.28.

21-Alazard (J), Histoire et historiens de l'Algérie, Paris, 1931, p.10²¹

22- Février (P.AL), 1989, p.59.

4- أهداف البحث الأثري في الجزائر:

الملاحظ مباشرة بعد احتلال الجزائر عام 1830، شرعت فرنسا في البحث في أعماق ماضي البلاد بحثاً عن تاريخها وآثارها، فأخذت ترسل البعثات الاستكشافية وتنظم عمليات التنقيب. وقامت فرق من الجيش الفرنسي بتدعيم الجمعيات الثقافية والباحثين في ميدان التاريخ التي قامت بدور كبير في الاشراف وتنفيذ هذه الأعمال سيما ما يتعلق بإنجاز الخرائط الطبوغرافية ومعرفة التركيبة الجيولوجية للبلاد واكتشاف المواقع الحضرية وكذا تخطيط مسارات الطرق العسكرية القديمة.

1.4-الهدف السياسي والأمني.

لقد كان الهدف من هذه البحوث والاستكشاف هدف سياسي بالدرجة الأولى والمتمثل في الكشف والبحث عن الآثار العائدة للفترة الرومانية والمسيحية حتى يتسنى للحكومة الفرنسية تبرير تواجدها بالمنطقة بذريعة أن هذه الأرض إنما كانت فيما مضى منتمية للحضارة اللاتينية ثم المسيحية بعد ذلك، وان الشعب الجزائري إنما هو من أصل روماني، ومن ثم فإن تواجدها بفرنسا بالجزائر ما هو الا امتداد لهذه السيرورة التاريخية والعودة الى الأصل كما كانت من قبل أي في العهد الروماني²³. ومن جانب ثاني فقد كان الوضع الأمني ضرورة فرضت نفسها لتثبيت السيطرة الفرنسية على البلاد، فكان للجيش الفرنسي دور محوري لتجسيد خطط السلطة الفرنسي، وذلك بشق الطرق لتسهيل عمليات المواصلات ونقل الجنود والمؤونة الخاصة بالجيش، وقصد القضاء على المقاومة والثورات المحلية التي كان الأهالي يقومون بها من حين لآخر.

2.4- الهدف الاقتصادي.

الى جانب الهدف الاقتصادي المتمثل في وجوب معرفة كل الثروات التي تزخر بها البلاد من كل الجوانب سواء الجغرافي مثل الغطاء النباتي او الثروة الحيوانية أو الجانب الطبوغرافي والهيدروغرافي وطرق المواصلات وكذا التكوين الجيولوجي للأرض²⁴، لتمكين من بسط سيطرتهم الكلية على كامل أرجاء البلاد والشعب والانتفاع من هذه الخيرات، ولذا نظمت بعثات دراسية للبنية الجيولوجية بغية الكشف عن مواقع المناجم وكذا تحديد المناطق الرعوية والزراعية قصد استغلالها.

3.4- الوازع الديني.

كما كان للجانب الديني دور محوري ومأثر في عملية البحث والاستكشاف ويتمثل هذا الوازع في الكشف عن المدى والبعد الحضاري للمنطقة خاصة منها تلك الفترة العائدة للعهد المسيحي، حيث نسجل مساهمة كبيرة لرجال الدين المسيحيين في دعم والمشاركة في العملية البحث والكشف عن المعالم المسيحية ومواقع دفن الأساقفة وكذا لتسهيل مهمة البعثات كغطاء لمخططاتهم التبشيرية فلا تخلو منطقة وصلها الجيش الفرنسي الا ورجال الدين معهم قصد التبشيرية ولتتصير المجتمع الجزائري²⁵.

²³ - شنييتي محمد البشير، 2013، ص.68،
²⁴ - منصور خديجة، 1999، ص.31،
²⁵ - نفسه، ص.30.

4.4- الدافع المعرفي.

كما سبقا لذكر أعلاه، فلقد أولى المستعمر خلال الفتر الأولى من الاستعمار أهمية قصوى للجانب الأمني والاقتصادي والديني، بنما أهمل الجانب العلمي فبالرغم من استخدام مبدأ المعرفة التاريخية لعملية البحث الأثري إلا أن هذا الجانب يأتي في المرتبة الاخيرة ويستغل كغطاء لكل ما سبق ذكره أنفا، وهذا امر منطقي بالنسبة للمستعمر، ومها يكن فإن الجانب العلمي والمعرفي قد فرض نفسه وأصبح هو السائد خلال الفترة الثانية من التواجد الفرنسي²⁶. فقد تغير الوضع بحيث أولي له أهمية كبيرة كونه يبرز ويقدر لا يستهان به من المعرفة التاريخية للحضارات القديمة التي عرفتها المنطقة باعتبارها جزءا من التراث العالمي.

أصبح الجانب العلمي للبحث الاثري بالجزائر يستجيب لبرامج علمية مبرمجة تشرف عليها مصلحة التنقيب والترميم للمواقع والمعالم التاريخية للجزائر، كما كانت هذه المصلحة سلطة تعين الباحثين في المجال الاثري وغالبا ما كانت تختار الجامعين ذوي خبرة في العمل الميداني وفي جميع التخصصات²⁷. ومن حقها أيضا تحديد وتسطير البرامج البحثية والموافقة عليها، كما كان من مهامها تخصيص وتقدير الأموال الخاصة بعمليات البحث والتنقيب بالإضافة الى عمليات ترميم المعالم التاريخية.

5- المناهج المتبعة في البحث والتنقيب:

فيما يخص المنهجية المتبعة في البحث والتنقيب الكشف عن الآثار فنستطيع القول انها مرت بعدة مراحل، كل مرحلة تتصف بطريقة عمل خاص بها والتي نوردتها على النحو التالي:

1.5- المنهج البسيط أو العشوائي:

لقد اتصفت المرحلة الأولى من الكشف بنوع من البساطة كون الاعمال التنقيب التي كانت تنجز آنذاك كانت على طريقة البحث عن الكنوز وقد كانت منافسة كبيرة فيما بين فرق التنقيب، حيث لا يهتمها الا اقتناء الأثر قصد كسب الشهر أو امتلاك التحف أو بيعها خاصة للهاوون او المتاحف الأوربية²⁸ هذه التحف تعرف اليوم بمجموعات تحمل أسماء كاشفيها او مقتنييها، كما نقلت بعض التحف الى خارج الجزائر، مثل ما حدث لعملية الكشف عن قوس كراكلا بكويكول (جميلة) تمهيدا لنقله الى فرنسا، وكذا العناصر المعمارية المكتشفة بالموقع الاثري بتيقزيرت (يومنيوم) سابقا المتواجدة اليوم بمتحف اللوفر فقد كانت النتيجة عدم تدوين المعلومات الخاصة عن مصدرها ولا تاريخ اكتشافها ولا المحيط الأثري الذي وجدت فيه، ولعلى أحسن مثال عن هذا النصب الحامل لنص لاتيني الموجود اليوم بالحديقة العمومية بمدينة أفول غرب ولاية الأغواط والتي نفتقد إلى جل المعلومات الخاصة باكتشافها، لا مكان الاكتشاف ولا ظروف التنقيب ولا مكتشفه.

26 - منصور خديجة، 1999، ص.32.

27 - شنيبي محمد البشير، 2013، ص.68-69.

28 - بالاحرش عبد العزيز، 1999، ص.72-73.

2.5- الرحلات الاستكشافية:

المنهج الثاني المعتمد في الاكتشافات الأثرية هو افاد بعثات او رحلات استكشاف (ما يعرف حديثا بالمسح الأثري)، وقد اتسمت هذه الرحلات بنوع من المهنية وسمة العلمية، وتتمثل مهام هذه البعثات في عدة عمليات²⁹ من رسم رسومات على شكل صورة عامة ورسومات أخرى توضيحية ووصفية للأثار، كما كانت ترسم أيضا الاشكال والمقاطع والمخططات بمقياس، علما ان هذه البعثات لا تقوم بعملية التنقيب عن الأثر بل تكتفي بتوثيق ما تلاحظه بارزا فوق الأرض. وعليه يمكن القول ان هذه الرحلات كانت عمليا تقتصر على توثيق الاكتشاف.

3.5- المسح الأثري الجوي:

كما استغل منهج التصوير الجوي للمواقع الأثرية أي المسح الجوي الذي أنجزه برداز³⁰ لاكتشاف العشرات من المواقع الأثرية منها القلاع والحصون واثار مسار اللمس النوميدي خاصة عند الحد الفاصل ما بين شمال الصحراء وجنوب الاوراس. التي كانت تحت إشراف لجنة مختصة على مستوى الحكومة المركزية بالجزائر والتي كانت تنظم وتمون هذه الأعمال مثل ما هو مثبت في التقارير المنشورة في الجريدة الرسمية للحكومة الجزائرية أو تلك التقارير المنشورة في الحوليات مثل المجلة الإفريقية وحوليا CRAI و BAC ومجلة ليببكا ومجلة الدراسات القديمة وغيرها من الحوليات³¹ وقد كانت اللجنة مكون من عدة مصلح إدارية ومالية وبحثية، ويتأسسها باحث جامعي من بينهم ستيفان قزال.

4.5- الإشراف العلمي (الجامعي):

بحلول نهاية القرن التاسع عشر أصبح يستخدم المنهج العلمي في التنقيب والبحث والذي يتسم ببرمجة منتظمة ويتسخير الإطارات الجامعية ذوي خبرة، والذين قاموا بتوثيق معظم المعطيات الخاصة بظروف التنقيب والكشف ورسم المخططات والأشكال وكذا ادراج المواقع الأثرية في خرائط خاصة بالطبوغرافية³². وكان هذا نتيجة استحداث فرع علم الآثار بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر التي أسند لها مهام الإشراف العلمي للبحث الأثري، وقد أنتج هذا المنهج تطور من حيث الدقة في المعلومات مثل تدوين المقاسات واستخدام علم الطبقيّة ورسم المقاطع ورفع معماري لواجهات المعالم واستخدام التصوير أثناء التنقيب وكذلك ادراج عمليات ترميم المعالم التاريخية وتدعيم المباني الأثرية توخيا لتعرضها للاندثار، كما اعيد تركيب بعض العناصر المعمارية للمباني الأثرية³³.

6- المنجزات الناتجة عن البحث الأثري قبل بعد الاستقلال الجزائر:

من بين اهم المنجزات التي افضت اليها نتائج البحث الأثري بالجزائر، يأتي في المقام الأول عملية النشر وانشاء المجالات المتخصصة في الميدان الأثري والمعالم التاريخية، وفي المرتبة الثانية تعد هذه النتائج أي المنشورات بمثابة بنك معلوماتي يأخذ منها الباحث ما يهمه من المعلومات لإنجاز ابحاثه وكتابة التاريخ. كما نسجل بعض الإنجازات الأخرى مثل انشاء المتاحف، بالإضافة الى انشاء مراكز بحث متخصص في البحث الأثري، والحضائر الأثرية.

²⁹ - شنيثي محمد البشير، 2013، ص.62.

30- Baradez (), Fosatum Africae, Paris, 1949, p
31--Leglay (M), Chroniques, Rev Afr,1954, p.223-224.

³² - منصور خديجة، 1999، ص.34.

³³-Monguelonne (J), Chronique archéologique, RSC, t.49, Paris, 1915, p.252.

1.6- نشر نتائج البحث الاثري وانشاء المجالات المتخصصة في الآثار:

يعد نشر نتائج البحث الاثري من اهم المنجزات المحققة طيلة الفترة الاستعمارية³⁴، فلقد دونت مئات التقارير والمقالات وتم نشر العديد من الكتب التي تعد مراجع أساسية لا يمكن تجاهلها او القيام بدراسة او بحث أثري دون الرجوع اليها، فهي تعد من أمهات الكتب في الميدان الاثري. كما انجزت العديد من الرسائل والاطروحات الجامعية، ونظرا للعدد الكبير لهذه الاعمال سوف نذكر منها اهم ما تم نشره على سبيل المثال، بحيث لا نستطيع ذكرها كلها في هذه العجالة. وتتصدر نتائج الحفريات والتنقيبات الأثرية صدارة المستندات الوثائقية، بالإضافة إلى الدراسات الاكاديمية المنجزة حول الآثار المكتشفة خاصة تلك المنجزة تحت اشراف مصلحة التنقيب والترميم للمواقع الاثرية والمعالم التاريخية للجزائر والمنشورة في حولية جمعية البحث التاريخي والعلمي والمتخصصة في نشر البحوث الآثار: المجلة الأفريقية (Revue Africaine) وكذا (Bulletin du comité des travaux historiques et Scientifique).

كما نجد تقارير البعثات العلمية التي كانت توفد إلى مختلف المواقع الأثرية، هذه البعثات أعدت الكثير من البحوث منها المنشورة في أرشيف البعثات العلمية (Nouvelles archives des missions) فقد كانت تنشر التقارير الخاصة بالحفريات و نتائجها دوريا بصفة منتظمة، ونشرت أيضا بعض الدراسات المعمارية و الفنية و الأثرية و التي نجدها منشورة في Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de (Constantine). بالإضافة الى ذلك نجد صحيفة العلماء او ما يعرف ب (Journal des Savants)، كما يمكن ذكر مجلة الجمعية التاريخية الجزائرية (Société Historique Algérienne)، بالإضافة الى مجلة الآثار (Revue Archéologique)، وكذا بعض المنشورات المحلية مثل مجلة أكاديمية هييون (Académie d'Hippone) التي تصدرها جمعية الأبحاث العلمية و الإقليمية لمحافظة عنابة. وأخيرا نذكر نشره جمعية الجغرافيا والآثار لوهران (Bulletin d'Oran). هذه بعض الدوريات التي كانت تنشر كل التقارير والأبحاث والمقالات الخاصة بالبحث الاثري ابان الاحتلال الفرنسي بداخل الوطن.

من جانب اخر اهتمت بعض الدوريات الأجنبية بهذه الاعمال البحثية والتي يمكن ان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: المجلة الأثرية الأمريكية (American Journal of Archeology)، وكذا مجموعة أوبوسكولا رومانا (Opuscula Romana) والدورية ألمانية المختصة بآثار العالم الروماني (Stifung Aufsting und Niedergang der Romichen welt). إضافة إلى هذه الدوريات نذكر مجلة الآثار والتاريخ التي تنشرها المدرسة الفرنسية بروما (Mélanges d'Archéologie et d'histoire de l'école Française de Rome). هذه هي بعض العينات من المجالات والدوريات التي أنشئت لغرض نشر نتائج البحث الاثري بالجزائر.

2.6- الكتب والاطروحات الاكاديمية:

تحتل الأعمال الحديثة من دراسات أكاديمية والبحوث التقنية والتقارير العلمية وبعض الأعمال التنقيبية للبعثات العلمية، والاكتشافات الأثرية، مرتبة متقدمة ان لم نقل المرتبة الأولى من ناحية الدراسة والنشر، بحيث كانت الاعمال الميدانية اهم مصدر لعدة دراسات حديثة، ولعل من أهم اعمال الباحثين اللذين ساهموا بقدر وفير في البحث الأثري

³⁴ - منصور خديجة، 1999، ص.37-38.

والتاريخي للجزائر وقاموا بنشرها نذكر الباحث س قزال (Stp. Gsell.) الذي قدم الكثير من الاعمال البحثية، جزء منها يعد من الاعمال الأساسية لأجراء أي بحث ميداني حول اثار الجزائر الى جانب إعداده دراسة أكاديمية. ومن أهم أعماله

الاطلس الاثري الجزائري، الذي لا يزال مستند أساسي للباحث الأثري، كما نذكر كتاب اخر بعنوان التاريخ القديم لشمال إفريقيا وقد الفه في ثمانية أجزاء، أما العمل الثالث الذي لا يقل أهمية أنجزه في جزئين ويدور محتواه حول وصف المعالم القديمة للجزائر تحت عنوان (Monuments antiques d'Algérie.) ،

كما نشر قزال العديد من التقارير حول الحفريات واعمال الصيانة و تدعيم الاثار ، كما كتب عدة مقالات علمية والتي تهتم بموضوع المعالم التاريخية والأثرية خاصة المنجزة بالجزائر والتي تعود للفترة الرومانية و المسيحية ، هذه المقالات والتقارير كانت تتجز على ضوء الرسائل والتقارير التي كانت تبعث إليه من طرف ضباط وإداريون وهاوون للتراث والآثار القديمة على إثر الاكتشافات والنتائج التي تم التوصل إليها من خلال أعمال التنقيب أو الاكتشافات الجديدة، وقد جمعها قزال في تقارير وملفات تعتبر اليوم بمثابة بنك معلوماتي حول المواقع والمعالم التاريخية ومقصد لكل باحث في هذا الميدان.

الذي قدم لنا عدة (A. Ballu) على التنقيب الأثري في الجزائر نذكر ألبير. بالو ومن المنشورات للباحثين الذين أشرفوا قد أشرف عنها وبالخصوص تلك المنجزة بالموقع تيمقاد وكويكول. وتقارير حول الحفريات التي كان دراسات ومقالات حيث أهتم بدراسة النقوش اللاتينية وبعض (R. Cagnât) إلى جانبه باحث آخر لا يقل أهمية وهو روني كانيا المواضيع الأثرية على ضوء الاكتشافات التي أمدته هذه النصوص بمضامين جد هامة استغلها في بحوثه العلمية *L'armée romaine d'Afrique et l'occupation. (Militaire de l'Afrique sous les empereurs Romains*

نفس القول يمكن إدلائه بالنسبة للباحث أ. شوازي (A. Choisy) والذي ألف عدة دراسات التي تمس عدة فترات تاريخية من بونية ورومانية وبيزنطية، خاصة ما يتعلق بالعمارة، كما نجد عدة بحوث قام بها بول. ألبير. فيفريه (P.A. Fevrier) والذي اهتم بمنطقة ستيفيس(سطيف) وكويكول (جميلة) على الأخص. إلى جانب دراسات أخرى لا يسعنا ذكرها لطول القائمة.

3.6- انشاء المتاحف:

من بين اهم المنجزات التي تحققت نتيجة البحث الاثري انشاء المتاحف، فالجزائر اليوم تزخر بالعديد من المتاحف سواء تلك المنجزة في فترة الاحتلال الفرنسي او المتاحف المنجزة بعد الاستقلال، والغرض من الانشاء هو المحافظة على ذلك المنتج الاثري وصيانتته وعرضه للجمهور المتعطش لمعرفة ماضيه، فلا تخلو مدينة الا ونجد بها متحف. هذه المتاحف على أنواع، فمنها المتاحف الخاصة بالمواقع الاثرية على غرار متحف تيمقاد وكذا لامبيزس وقالمة ومتحف سكيكدة³⁵. هذا النوع يعرض للقى الاثرية المكتشفة بالموقع أي المنطقة. كما نسجل متاحف البلديات او المدن مثل متحف قسنطينة والخاص بتاريخ المنطقة الذي انشأ عام 1855، وكذلك متحف وهران³⁶ الذي تم تشييده عام

35- Lassus (J), 1958, p.248

³⁶-De la Blanchère (R), Musée d'Oran, Paris, 1893, p.6.

1885، ومتحف الجزائر الذي أصبح يحمل اسم ستيفان قزال قبل الاستقلال و اليوم يحمل اسم متحف الاثار القديمة و الاثار الإسلامية و الذي انشأ عام 1838، و أيضا متحف شرشال المنجز عام 1842 . بجانب هذه المتاحف القديمة، أنجزت العديد من المتاحف الجديدة منها متحف سطيف المنجز في التسعينات من القرن الماضي، بالإضافة لمتحف شرشال الجديد، ومتحف خنشلة وكذا عدد معتبر من المتاحف التي هي قيد الإنجاز حاليا.

4.6- انشاء مراكز البحث الأثري ومداس متخصصة:

ومن جهة أخرى تم أنشاء مؤسسة متخصصة في الدراسات الأثري بالجزائر العاصمة والمعروفة بمركز البحث في الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ والأثولوجيا(C.R.A.P.E) ، والمعروف حاليا باسم مركز الدراسات التاريخية وعلم الانسان³⁷ والذي وسع مجال عمله الى منطقة الصحراء. كما تم انشاء حديثا نهاية 2010 المركز الوطني للبحث في علم الاثار(C.N.R.A) والذي أسندت اليه مهمة البحث الاثري عبر كامل التراب الوطني. وكذا المدرسة العليا لصيانة والمحافظة على التراث الوطني بتيبازة مهمتها تكوين المختصين في مجال الصيانة والمحافظة المعالم التاريخية.

7-النتائج:

بعد هذا العرض المختصر لمراحل البحث الاثري، نأتي من خلال هذا المحور الى عرض النتائج، والتي تطرح إشكاليات بحثية مستقبلية في نفس الوقت قصد تصويب الأخطاء الواردة في الاعمال المنشورة سابقة.

1.7-نهب الاثار:

إن كان البحث الأثري بالجزائر قد أدى إلى الكشف كم هائل من اللقى الاثرية وكذا الاثار المبنية وأنتج معرفة تاريخية لا بأس بها للتراث الحضاري للجزائر. الا انه أشاب هذا العمل صفة النهب الذي قام به ناهبي الاثار بحثا عن الكنوز بغية الانتفاع ماديا في فترة الاحتلال وكذلك نتيجة عدم التوعية وانعدام المراقبة و فراغ الميدان من مختصين بعد استرجاع السيادة الوطنية .

2.7-التدمير ودفن التاريخ:

لقد شرعت فرنسا ببناء المدن الجديدة حسب الطراز الأوروبي قصد إسكان المعمرين الوافدين من فرنسا واسبانيا وإيطاليا، فكلما استعمرت ناحية من البلاد تشرع في بناء مدينة جديدة دون مراعات المواقع الاثرية، بحيث نجد ان معظم المدن المشيدة في العهد الفرنسي انما بنيت على انقاض المواقع او المدن القديمة مثل مدينة بجاية، عنابة، سكيكدة، خنشلة، سوق اهراس، تازولت، شرشال، و الأمثلة عديدة و لعل احسن مثال يمكن ادراجه في هذا الشأن والتميز بعدم احترام او الاكتراث بالجانب التراثي ما حدث في مدينة الجزائر العاصمة حين شرعت سلطات المدينة ببناء حي باب عزون تم اكتشاف نقيشة لاتينية بها اسم المدينة "كوزيوم المستوطنة الرومانية"، إلا ان السلطات آنذاك لم تعطي أي أهمية لذلك ، بل تابعت الاشغال و بني الحي و بذلك طمست اثار مدينة اكوزيوم، بل اكثر من هذا فلم يتم برمجت أي تنقيبات للكشف عن باقي اثار المدينة، علما ان هذه الحادثة حصلت في نهاية القرن التاسع عشر أي في عهد تولي س قزال رئاسة مصلحة المعالم التاريخية و البحث الاثري بالجزائر.

37 - شنيتي محمد البشير، 2013، ص.85-86.

كما ان بعض المعالم رغم أهميتها التاريخية الا انها دمرت عن اخرها واقتلعت من أساسها، ولعلى أحسن مثال على ذلك ما حدث بقلب مدينة قسنطينة حين شرعت أحد الجمعيات الخيرية في بناء مدرسة ومصحة للنبات، حيث تم اكتشاف بقايا المعبد المكرس للآلهة الثلاثية الرومانية، فقد استخرجت جل العناصر المعمارية مثل أسطوانات الاعمدة والتيجان والافريز الذي نقش عليه نص لاتيني والدال على هوية المبنى المتواجد بالمكان الا وهو المعبد الكابيطولي بكيرتا، وقد نقلت هذه العناصر الى مكان مجهول لا يعرف مكانها أحد لحد اليوم.

كما يمكن تقديم مثال ثاني ضمن هذا العنصر وهو ما حدث بمدينة سكيكدة حين دخلها الجيش الفرنسي اول مرة، فقد استقر في موقع يسمى بالسوق المدينة الذي كان يتموقع في الأصل بموقع حلبة المدرج الروماني، وتذكر المصادر انه كان قائما بمدرجاته كاملة ودهاليزه وبواباته، حيث شرع الجيش في بناء ثكنة عسكرية به وحول موقع المدرج، فعمد افراد الجيش لاستغلال المادة الحجرية بالمواقع الاثرية كما فعلوا بمدرج مدينة لامبيزس..

3.7- ضياع المعطيات العلمية:

من جهة أخرى نسجل ضياع الكثير من المعطيات العلمية والتاريخية خاصة فيما يتعلق باللقى الأثرية المكتشفة، حيث لا نعلم الكثير عن ظروف الكشف والمحيط الأثري الذي تم فيه الكشف، ناهيك عن تلك اللقى التي نقلت الى فرنسا، والبعض منها هي اليوم في مخازن متاحف أوروبا ومنها متحف اللوفر، ضف إلى ذلك ما نهب عشية رحيل الفرنسيين عند استقلال الجزائر.

4.7- اختفاء الوثائق:

إلى جانب هذا نسجل اختفاء معظم الوثائق الخاصة بعمليات التنقيبات، خاصة تلك المنجزة خلال العقود الاخيرين من التواجد الفرنسي بالجزائر، مثل مخططات المباني وتقارير الحفريات والصور الخاصة بعملية التنقيب والتي قد نقلت إلى فرنسا وتتواجد اليوم في المكتبات ومراكز البحث الخاصة والجامعات الفرنسية والتي يصعب على الباحث الجزائري الاطلاع عليها إلا بعد مشقة كبيرة، في حين تظهر هذه الوثائق في مختلف الدراسات الاكاديمية.

5.7- حجب وعدم الاهتمام بفترة الممالك الوطنية (ما قبل الرومان):

ان حاولنا فحص مجال اهتمام الباحثين المشرفين على مجال البحث الاثري للاحظنا جل الاهتمام المنصب حول آثار الفترة القديمة بما فيها الآثار المسيحية وفي المقام الأول ثم الآثار الرومانية في المرتبة الثانية ، بينما بقيت الفترة النوميديّة أو ما يعرف بفترة ما قبل الاحتلال الرومان محجبة ولم يتم الاهتمام بها سواء كان ذلك عن عمد او عن غير عمد، ونحن نفهم من خلال ذلك ان المستعمر كان يعمل على تبرير تواجده بالجزائر وما يهيمه الا الآثار التي تربط الجزائر بأوروبا، اما ما عدى ذلك فلا يهمهم ، كما كان الاهتمام اقل فيما يخص اثار ما قبل التاريخ والإسلامية.

وعليه فقد حان الوقت الشروع في البحث عن هذه الآثار منها اثار ما قبل الرومان وكذا توسيع مجال الآثار الإسلامية والاهتمام أكثر بالآثار الصحراوية، حتى نتمكن من جهة استكمال الحلقة والثغرة المسجلة في سجل الاستمرارية التاريخية لحضارتنا الأصيلة وكذا معرفة نمط الحياة المعيشية التي كانت سائدة آنذاك من حياة سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية وخاصة عهد حكم ماسينيسا.

6.7- تأريخ المعالم عشوائيا:

بالإضافة الى ما تقدم لقد أرخت العديد من المعالم الأثرية تأريخا اقل ما يقل عنها انه تاريخ عام دون اسناد او اثبات مادي أي أثرى، من بين هذه المعالم يمكن ذكر مبنى سوق سيرسيوس بمدينة تيمقاد وكذا سوق كوزنيوس بمدينة كويكول، فأما المبنى الأول فقد قدمت عدة فرضيات حول فترة تشييده ، من بينها فرضية قزال الذي أرخه بنهاية الربع الأول من القرن الرابع الميلادي³⁸ ، كما اقترح بالو تأريخ اخر مفاده ان المبنى انجز في القرن السادس الميلادي³⁹، بينما يرى صلابان ان المبنى قد شيد في منتصف او نهاية القرن الرابع الميلادي⁴⁰، وعليه نسجل الاختلاف وعدم توافق بين اراء الباحثين، هذا الاختلاف راجع لنظرة كل منهم للأثر حسب ما يظن انه اكتشفه، بناء على اجتهاده او تحليله العلمي⁴¹. وبالرجوع الى كل ما قدم من تحليل وتحويل واسناد من طرف هؤلاء، الا انه نلاحظ عدم تناسق وتطابق المعطيات العلمية المقدمة ومعطيات المبنى ومن ثم لا يمكن تأريخ المبنى على هذا النمط كونه يعتمد على افتراض وليس إثبات، وقد قمنا بدراسة هذا الموضوع سابقا⁴²، وتوصلنا الى ان المبنى قد شيد فعلا بفترة تتراوح ما بين 180 و 190 ميلادي أي نهاية القرن الثاني الميلادي حين توسعت المدينة عند الجهة الغربية وازيل السور الغربي للمدينة.

بينما المبنى الثاني فقد أرخه فيفريه بعام 154 للميلاد⁴³. بالرغم من وجود كل الأدلة الدامغة امامه سواء النصوص التشييدية او العناصر المعمارية او حتى مبدا التحليل المنطقي للمعطيات الاثرية مثل موقع المبنى وبعض الاعمال التعديلية التي اجريه على المبنى الا انه قدم تأريخ لا نرى انه صائب لعدة اعتبارات، والتي شرحناها وقدمنا نتائج هذه الدراسة في ورقة بحثية تم نشرها مرقنه وذلك خلال الملتقى الوطني للأيام الثانية للأثار⁴⁴ الذي انعقد بجاية عام 1988، فمن خلال هذه المداخلة قدمنا تأريخا لا غبار عليه و ذلك باستخدام نفس النصوص التشييدية و اضعنا اليها التعديلات التي طرئت على مبنى السوق و التي يمكن تلخيصها على النحو التالي:

أولا: - النصوص التشييدية لسوق كوزنيوس الغياب الملفت للانتباه لعنصر القنصلية الذي يمنح للإمبراطور ويجدد كل مما يدل ان الامبراطور انطونينوس التقي لم يتحصل بعد على القنصلية اثناء انشاء السوق، حيث اغلب الظن ان السوق قد شرع في تشييده قبل اعتلاء انطونينوس سدة الحكم.

ثانيا: - ان خصائص النظام المعماري الذي انجز به السوق كان نظام سائد وشائع يعود الى بداية القرن الثاني حتى منتصف القرن الثاني، وكذلك الشأن بالنسبة للزخارف التي زين بها عدة عناصر منها العارضة التي تحمل مزاريب

38. - Gsell (st), Monuments antique de l'Algérie, 2 vols, Fontenoing, Paris, 1901, t.1, p.206³⁸

39- Ballu (A), Le monastère byzantin de Tébessa, Leroux, Paris, 1937, p.23-34.³⁹

40- Saladin (H), Recherches des antiquités dans le nord de l'Afrique, C.T, t15, Paris, 1890, p.154.

- بن مسعود ناصر، أسواق مقاطعة نوميديا " دراسة معمارية مقارنة لأسواق تيمقاد وكويكول " رسالة ماجستير، معهد الاثار، جامعة الجزائر، 1992، ص 169-171.

- بن مسعود ناصر، العمارة العمومية بالمقاطعة النوميديا الرومانية، دراسة تحليلية واثريه لعمارة المنشآت العمومية، أطروحة دكتوراه علوم، معهد الاثار، جامعة الجزائر، 2018، ص 75-87.

43- Février (P.AL), Notes sur le développement urbain en Afrique du nord, exemple comparée entre Djemila et Sétif, Paris, 1964, C. Arch, t. XIV, p.1-47.

- بن مسعود ناصر، ملاحظات حول سوق كوزنيوس بكويكول، الملتقى الوطني للأيام الثانية للأثار، بجاية 14-17 مارس، 1988، ص 24-27.⁴⁴

لتصريف مياه المطر وهي مشكلة من رؤوس حيوانية منها الاليفة مثل البقر والمتوحشة مثل الأسود والضباع، كما زخرفت حوامل موائد البيع بأنصاف التماثيل الميثولوجية منها هرقل.

ثالثا: - وجود باب عند منتصف الجدار الشرقي للسوق والذي اغلق في تاريخ لاحقة بعد تشييد السوق وذلك راجع لبناء سراديب المعبد الكابيطولي والذي تفتح قاعته السيلا على الرواق الشمالي للفروم المدينة، هذا المعبد حدث له شرح عند الزاوية الجنوبية الشرقية بسبب الانخفاض الارضي الذي حدث بالفروم عند هذه الجهة، وتم الترميم عام 154 الميلادي كما أرخ ذلك فيفري نص الترميم، هذا ما يدل ان المعبد كان مبنيا قبل الحادثة وبما ان المعبد اغلق الباب الشرقي للسوق فهذا يعني ان السوق كان قد شيد من قبل. فجل هذه المعطيات تدفعا الى القول ان السوق قد بني كحد اقصى عام 138م وليس عام 154. ان عرضا لهذه الأمثلة لم يكن من باب النقد العشوائي او انتقاص من الباحثين السابقين، هو نقد لتصحيح ما ورد من أخطاء قد يقع فيها الكل، ولكن كان يجب الانتباه الى ما هو أخطر وهو الجانب التاريخي والعلمي، فان هذا الجانب لا يجب ان يحتوي مثل هذه الأخطاء سيما انه كان بالإمكان تقاديها بشيء من التمعن والتركيز.

الخاتمة :

بعد هذا العرض المختصر حول البحث الاثري بالجزائر والذي اتسم تارة بغزارة الاكتشافات الاثرية وتارة بشح الإنتاج جراء فراغ الميدان من الباحثين لأسباب ذكرناها سابقا. فان هذا الميدان قد عاد الى الوجود بفضل سهر الدولة التي اولت أهمية لهذا المجال الحيوي بل الاستراتيجي، من خلال انشاء المعاهد والمدارس والأقسام بالجامعات عبر كامل التراب الوطني وتكوين مختصين في الآثار بجميع تخصصاته، وذلك لترقية لتراث الحضاري بالجزائر ليعتلي المكانة اللائقة به، كون هذا الميدان انما يعمل لأجل ابراز ماضي ومساهمة الشعوب في بناء الحضارة الإنسانية جمعاء.

فرغم هذه الأهمية نسجل على الصعيد الخارجي اقضاء البحث الاثري بالجزائر بعدم تنفيذ ما جاء في اتفاقية افيان والتي تعهدت فيها فرنسا بإكمال البحث وتكوين الإطارات المختصين في الميدان الاثري، بل تجاوز هذا الاقصاء الى حد عدم اهتمام الباحثين أنفسهم بحقل الجزائر، ما عدى قلة منهم، كما روج اخرون فكرة عدم أهمية البحث الاثري بالجزائر كونه لا يمكن ان يقدم شيء جديد، ومن ثم استغلت هذه الفكرة بإنجاز بحوث تتصف بالدراسات العامة، فحسب الباحث بيار قرو⁴⁵ ، فلقد اعتاد الباحث في الميدان الأثري الاهتمام بالمواضيع العامة والدراسات الوصفية والتنميطية على حساب الدراسات التحليلية وكذا الدراسات المقارنة ، بينما بقي البحث الميداني دون اهتمام، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن هذه الصيغة من الدراسات تعرقل الجانب المعرفي أكثر مما تقسر فهم تاريخ تطور الحضارة.

جانب آخر ما يثبت هذه النظرة البحث الذي أنجزه الباحث ج.ب. ورد بيركينس (J.B. Ward-Perins ;) 1981. حيث تناول العمارة الرومانية عامة، وقد اعتبر هذا البحث عملا شامل وكامل والذي أعيد نشره عام 1981، إلا أن هذه الدراسة تقتصر لجزء هام ويتمثل في العمارة التي أنجزت بالمقاطعتين النوميديية والموريطانية أو بمعنى آخر عمارة إفريقيا الرومانية، بالإضافة الى ذلك فلقد أجريت العديد من الحفريات خلال الربع الأخير من القرن الماضي في

⁴⁵- Gros (P), Architecture romaine, CNRS, J. Picard, Paris, 2002, t.1, p.19.

كل من إيطاليا وأبيرييا ومصر وتونس وكذا بلاد الإغريق، اكتشف على إثرها معطيات معرفية جديدة قلبت موازين المعرفة التي كانت سائدة من قبل، والتي أدت إلى توسيع مجال البحث الأثري هناك، ومن ثم أعيد طرح بعض الإشكاليات العلمية والتاريخية قصد تصحيح بعض ما ورد من مغالطات في الدراسات السابقة، كما طرحت للنقاش والبحث إشكاليات جديدة فرضت نفسها على ضوء هذه الاكتشافات الحديثة.

كما كشف الملتقى الأثري ببرلين المنعقد عام 1988 عن غنى ما كان يسمى المقاطعات الرومانية فهي تكتنز معلومات ومعطيات أثرية وتاريخية هامة جديدة بالاهتمام، وعليه أصبح الاهتمام يتزايد بالمجال الأثري بمصر خاصة العهد الروماني، وكذا المصريين، إضافة إلى ذلك ما أدلت به قرطاج من معلومات أثرية جديدة، وكذا الشأن بالنسبة لمدينة قرطبة. ومن جهة أخرى أعطى البروفيسور ف راكوب⁴⁶ نفس جديد للميدان المعماري، خاصة العمارة النوميديّة من خلال بحثين غيرا نظرة الباحثين الأجانب وشجعهم على البحث حول هذه المنطقة التي لم تحظى بنصيبها من الدراسة من قبل، إلا ان البحث الأثري الميداني بقي يتأرجح مكانه.

وفي الأخير فبجانب هذا هناك جملة من الملاحظات التي ندرجها على شكل توصيات نأمل ان تتحقق في الميدان وهي على النحو التالي:

- أولا العمل على انشاء مجمع باحثي (المعارف) الجزائري (société des savants Algérienne)، تكون مفتوحة لكل مهتم بالبحث الأثري في الجزائر ويكون اهتمام المجمع التشاور واسداء النصيحة والرأي سواء في مواضيع البحثية او توجيه واعداد مشاريع البحث الميداني
- ثانيا الاهتمام وبعث مشاريع حفريات جديدة تهتم بالفترة النوميديّة أي ما قبل الفترة الرومانية.
- ثالثا وجوب إعادة القراءة لما كتب سابقا وتصحيح الأخطاء الواردة بها.
- رابعا اعداد مشروع وطني يتقيد به الباحث وإعطاء الأولوية للبحث الميداني كون بدون بحث ميداني لا توجد معطيات، وان غابت المعطيات لا يمكن انجاز بحوث اكاديمية جديدة.
- خامسا انشاء بنك معلوماتي الكتروني وطني للبحث الأكاديمي لتمكين الباحثين الاطلاع على المواضيع المسجلة عبر كامل الجامعات الجزائرية

المراجع البيبليوغرافية:

المراجع باللغة العربية:

- بن الاحرش عبد العزيز، (1999)، بداية البحث الأثري في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، (نظرة تقييمية: فترة ما قبل التاريخ، لملتقى الوطني للبحث الأثري، جامعة الجزائر، 30-31 مايو 1998، مجلة الدراسات الأثرية "أثار" 1999، العدد 5، صص 65-84.
- بن مسعود ناصر، (2018)، العمارة العمومية بالمقاطعة النوميديّة الرومانية أطروحة دكتوراه علوم، معهد الآثار-جامعة الجزائر 2.

⁴⁶- Rakob (F), Romiche architektur, in Das romischen weltreich, P.K.2, Berlin, 1967, p.36.

- بن مسعود ناصر، (1992)، أسواق مقاطعة نوميديا، "دراسة معمارية مقارنة لأسواق تيمقاد وكويكول"، رسالة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
- بن مسعود ناصر، (1988)، ملاحظات حول سوق كوزنيوس، الملتقى الوطني للأيام الثانية للآثار، بجاية، 14-17 مارس 1988.
- منصور خديجة، (1999)، البحث الأثري في الجزائر خلال الاحتلال الملتقى الوطني للبحث الأثري، جامعة الجزائر، 30-31 مايو 1998، مجلة الدراسات الأثرية "أثار" 1999، العدد 5، ص 25-40.
- شنيطي محمد البشير، (2013)، علم الآثار، تاريخه. مناهجه. مفرداته، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر.
- شنيطي محمد البشير: (1999)، التراث الحضاري ودور البحث في التنمية، الملتقى الوطني للبحث الأثري، جامعة الجزائر، 30-31 مايو 1998، مجلة الدراسات الأثرية "أثار" 1999، العدد 5، ص 15-24.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Alazard (J), Histoire et historiens de l'Algérie, Paris, 1931.
- Ballu (Alb), Le monastère byzantin de Tébessa, Leroux, Paris, 1937.
- De la Blanchère (R), Musée d'Oran, Paris, 1893.
- Février (P.AL), Approches du Maghreb romain, Edi sud, Aix-en- Provence, 2 vols, 1989.
- Fevrier (P. AL), Notes sur le développement urbain en Afrique du nord, exemple comparée entre Djemila et Sétif, C. arch, 1964, t. XIV, p1-47.
- Grenier (A.), Le génie romain dans la religion, la pensée et l'art, Paris, 1969.
- Gros (P), L'architecture romaine, T. I, CNRS, J. Picard, Paris, 2002.
- Gsell. Stp, Monuments antique de l'Algérie, 2 vols, Fontenoing, Paris, 1901.
- Gsell (st)&Jolly (Ch. A), Khamissa, Mdaourouch, Announa, A. J-Fontenoing, Alger-Paris, 1918.
- Lassus (L), Archéologie Algérienne en 1958, Libyca, 1959, t :7, p :312-315.
- Leglay M, Chroniques, Rev-Afr, 1954, p.223-224.
- Monguelonne J, Chronique archéologique, , 1915, RSC 49, 1915, p .252.
- Rakob (F), Römische Architektur, in Das Römischen Weltreich, P.K.2, Berlin, 1967.
- Rey-Goldzieger A,) Le royaume Arabe, Alger S. N.E.D, (1977.
- Saladin H, Recherches des antiquités dans le nord de l'Afrique, Leroux, Paris, 1890. p154.
- Souville (A), Les grottes à ossements et préhistoriques de l'ouest d'Alger, Libyca. 1953, T.1